

مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة

oboeikandi.com

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاما ، لقرب مسافة بعضها [من بعض] ، وباطن الداخل منها بيوت ، بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته ، وسعة وضعه ، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية ، هي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ، قد رص بناؤها رصا ، ينتظمها سور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد ، شارع متسع ، يمتد من أعلى البلد الى اسفله ، ودجلة شرقي البلد ، وهي متصلة بالسور ، وأبراجه في مائها .

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة - وكان يعرف بمجاهد الدين - جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع أحفل منه ، بناء يقصر الوصف عنه ، وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الحجر . وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويظن به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا احسن ، ووصفه يطول ، وإنما وقع الالماع بالبعض ، جريا الى الاختصار . وامامه مارستان حفيل ، من بناء مجاهد الدين المذكور .

وبنى ايضا داخل البلد ، وفي سوقه ، قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت ، بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف ، الذي لا مثيل له . فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها ، وللمدينة جامعان : احدهما جديد ، والآخر من عهد بني امية ، وفي صحن هذا الجامع قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد

خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفي اعلاها خصة رخام مئمنة ، يخرج عليها انبوب من الماء ، خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث ، ويجمع ايضا في جامع الربض . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة ، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم » وقد بني فيه مسجد ، وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ، فذبر كنا بزيارة هذا القبر المقدس ، والوقوف عنده ، ذفنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلد ، أن في الشرق منها ، اذا عبرت دجلة على نحو الميل ، « تل التوبة » وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل ايضا العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين ، وفي هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ، ومطاهر ، وسقايات ، ويضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت يندسل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ، ومحراب هذا البيت يقال : انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويظيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ، ويتعبدون فيه . وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم ، يقال : أنه كان مدينة « نيزوى » وهي مدينة يونس عليه السلام ، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الابواب فيه بيعة ، وأكوام أبراجه مشرفة ، بتنا

بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم)
صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهرنا فيها ، وصلينا
في المسجد المتصل بها ، والله يذفع بالنية في ذلك ، بمنه وكرمه ،
وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون اعمال البر فلا تلقي
منهم الا ذا وجه طلاق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال
عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم . فكان مقامنا في هذه
البلدة أربعة ايام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة ، بـروز شاهدناه يوم
الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين : أم عز الدين صاحب
الموصل ، وبنيت الامير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس عن
بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك ، واكثرهن راكبات ،
وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج امير البلد للقاء والدته ، مع
زعماء دولته . فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال
وأبهة ، قد جالوا اعناق إبـلهم بالحريـر الملون ، وقلدها القلائد
المزوقة . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريتها ، وامامها
عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جالت قبـتها كلها سبائك ذهب
مصوغة أهـلة وبنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتمائيل بيـدية
الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطياتها تزحفان بها
زحفا ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجاللة الاعناق
بالذهب ، ومراكب جواريتها كذلك : مجموع ذلك الذهب لا يحصى
تقديره ، وكان مشهدا ابـت الأـبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك
يفنى الا ملك الواحد القهار ، لا شريك له .

واخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ،
انها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لأفعال البر ، فمنها أنها
أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز ، في صدقات ونفقات في
السييل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات ،
وتزورهم متذكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله على شبابها ،
وانغماسها في نعيم الملك . والله يهدي من يشاء من عبادة .

وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصففر المذكور ، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمالين ، على ان القدر الحمود لم يسبب لنا الا صحبة الا شبه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصل . فأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف « بعين الرصد » ، وكان مقلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ، وكان مقلنا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها خانات ، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف « بجدال » لها حصن عتيق . وفي يومنا هذا رأينا ، عن يمين الطريق ، « جبل الجودي » المذكور في كتاب الله تعالى ، والذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل ، ثم رحلنا في السحر الاعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصففر . فكان مبيتنا بقرية من قرى « نصيبين » ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور « بالكلائي » .

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ، عرفنا الله ببركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني عشر من يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة

المنظر ، متوسطة بين الكبير والصغر ، يمتد امامها وخلفها بسيط
أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذناب من الماء تسقيه ، وتطرد
في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ،
يانعة الثمار ، يذساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف
السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفي ظلالها الوارفة عليه ،
فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، اندلسي الخمائل ، يرف غضارة
ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد
عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لاتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا
مشحة جمال ، وهذا النهر يتسرب اليها من عين معينه ،
منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تحترق بسائطها
وعماثرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في
بعض بيارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه ،
وينصب في صهريجين : احدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب
الشرقي منه ، ويفضي الى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر
المذكور ، جسر معقود من صم الحجارة ، يتصل بباب المدينة
القبلي ، وفيها مدرستان ، ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين
أخو عز الدين صاحب الموصل (١) ، ابنا أتابك ولعين [الدين]
أيضا مدينة « سنجار » وهي عن يمين الطريق الى « الموصل » .

ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم ، الشيخ ابو
اليقظان الأسود الجسد ، الابيض الكبد ، أحد الاولياء الذين نور
الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في
الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو (٢)
التبتل والزهادة ، ومن اخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ،
ولا يدخر من قوت يومه لغده : أسعدنا الله بلقائه ، وأصحبنا من

بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الاول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته ، وشرفنا بمصافحته ، والله ينفعنا بدعائه ، إنه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الاربعاء الثاني من ربيع الاول . ورحلنا صبيحة في قافلة كبيرة من البغال والحمير : حرانيين ، وحلبيين ، وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر ومايلها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال ، فتمادى سيرنا الى اول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر من اغارة الاكراد ، الذين هم أفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الى مدينة نيسر : يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الارض ، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم ، وكف عادتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ، ولادافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل . فقلنا يوم الاربعاء المذكور ، وراينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب من صفع الجبل ، مدينة « دارا » العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة ، ويلها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « مارين » ، وهي في صفع جبل في قننة قلعة لها كبيرة ، هي من قلاع الدنيا الشهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة نيسر ، حرسها الله

هي في بسيط من الارض فسح ، وحولها بساتين الرياحين والخضر ، يسقى بالسواقي ، وهي مائلة الطبع الى البانية ، ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الاسواق الحفيلة ، والارزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام ، وبيار بكر ، وأمد ، وبلاد الروم التي تلي طاعة الامير مسعود ، ومايلها ، ولها المحرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة . فكان نزولنا مع القافلة ببـراح

- ٦٢٦٦ -

ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع [الأول] بها فريحين ، وخارجها مدرسة جديدة ، بقية البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأذنة وصاحب هذه البلدة قطب اللين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارا » ومدينة « مارين » و « رأس العين » وهو قريب لابني اتابك (٣) .

وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس ، كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى اللين ، فلا تسمع الا الألقاب هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوق والملوك ، واشترك فيها الغني والصلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق إلا صلاح اللين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، والمشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردھا التجريح ، ودعوى نسبة للين برحت به أي تبريح !

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد (٤)

ونرجع الى حديث المراحل ، قربها الله :

فكان مقامنا بدنيسر الى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع [الأول] ، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها ، لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حافلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار ، وأيام كل سوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ،

تعرف « بتل العقارب » هي للنصارى المعاهدين الذميين ،
ذكرتنا هذه القرية بقري الاندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين
والكروم وأنواع الاشجار ، ويتسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ،
وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمت ، وشاهدنا بها من
الخنابيص (٥) امثال الغنم كثرة وانسا بأهلها . ثم وصلنا
عشي النهار الى قرية اخرى تعرف « بالجشر » هي الان لناس من
المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت
الخامس لربيع المذكور ، ثم اسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس
العين » قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من اصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف
الموضوعات ، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيوننا ، واجراها ماء
معينا ، فتقسمت مذائب ، وانسابت جداول ، تندبسط في مروج
خضر ، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها
أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة
بطحائها ، وأعظم هذه العيون عينان : احدهما فوق الاخرى ،
فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صمم الحجارة ، كأنها في جوف
غار كبير متسع يبدسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم
يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الانهار ، وينتهي الى
العين الاخرى ويلتقي بمائها ، وهذه العين الثانية عجب من عجائب
مخلوقات الله عز وجل ، وذلك انها نابعة تحت الارض من الحجر
الصلد ، بنحو أربع قامات او ازيد ، ويتسع منبعا حتى يصير
صهريجا في ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه
الارض ، فربما يروم السابح القوي السباحة ، الشديد الغوض في
اعماق المياه ، ان يصل بغوصه الى قعره ، فيمجه الماء بقوة ،
انبعاتا من منبعه ، فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة

العمق او اقل شيئا ؛ شاهدنا ذلك عيانا . وماؤها اصفى من الزلال ، واعذب من السلسبيل ، يشف عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، ويصاد فيها سمك جليل من اطيب ما يكون من السمك ، وينقسم ماء هذه العين نهرين : احدهما أخذ يمينا ، والآخر يسارا ، فالايمن يشق خانقاه مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا ، والايسر يذسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول الى مظاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسفلها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارحاء تتصل على شط موضوع وسط النهر ، كأنه سد . ومن مجتمع ماء هاتين العينين مذشأ نهر الخابور .

وبمقر به من هذه الخانقاه بحيث تناظرها ، مدرسة ، بازائها حمام ، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل ، وما ارى كان في موضوعات لننيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل اليها من جانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولا ب يلقي الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر ، وشأن هذا الموضوع كله عجيب جدا ، فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، ان يكون لها مثل هذا الموضوع جملا ، او تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، والحضارة عنها استغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور انيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت (٦) في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها . وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان حديث وقديم ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتنفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما ، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قد اثر القدم فيه ، حتى أنن بتداعيه ، والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله ، فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نخدلس في سفرنا كله مثلها .

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبة الاسراء ، وبرد الليل ، وتفاديا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها الى حران مسيرة يومين ، لاعمارة فيها ، فتمادى سيرنا الى الصباح ، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وارحنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وأثار قديمة ، يعرف « ببرج حواء » . فبيتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة ، واسرنا الى الصباح ، فوصلنا مدينة « حران » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لاحسن لديه ، ولاظل يتوسط برديه ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يأنف البرد ماؤه ، ولا تزال تتقد بلفع الهجير ساحاته وارجاؤه ، ولا تجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه الانفسا ثقيلًا ، قد نبت بالعرء ، ووضع في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة العتيقة المنسوبة لابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين المتبتلين . لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز ، حذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر ، قد التزمها وأشبهه طريقة ابيه فما ظلم ، وتعرفت منه شذشنة أعرفها من أخزم .

فوصلنا الى الشيخ ، وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا
وامرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فملنا اليه ولقينا ، ودعا لنا ، ثم
ودعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة .
ولقينا ايضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من
الزهاد الافراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعنا وانصرفنا ، وبالبلد
سلمة آخر ، يعرف بالكشوف الرأس ، لا يغطي رأسه تواضعا لاله عز
وجل حتى عرف بذلك ، وصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية
سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هيذون معتدلون ، محبون
للغرباء ، مؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لنيار
بكر ، ونيار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ،
واكرام الفقراء ؛ وأهل قراها كذلك . فما يحتاج الفقراء الصعاليك
معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة ، وشأن أهل هذه
الجهات في هذا السبيل عجب ، والله يذفعهم بما هم عليه ، وأما
عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فأكثر من ان يقيدهم
الاحصاء ، والله يذفع المسلمين ببركاتهم ، وصدوح دعواتهم ، بمنه
وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حافلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ،
مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها
كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع
أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص ، هي
كالفرق لتلك السكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو
عتيق مجدد ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث
قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي
الصحن ايضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من
الرخام ، دور كل سارية تسعة أشبار ، وفي وسط القبة عمود من الرخام
عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان
الروم . وأعلها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا

لعدتهم الحربية ، والله أعلم ، والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة ابلطة . وما رأينا جامعا اوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذي عليه المدخل اليه ، مفتوح كله ابوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله بهي المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من ابواب المدن الكبار . ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والذقش ، تنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور ، فشهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب اسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين ، مبني بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، وفي نهاية من القوة ، وكذلك بنيان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها ، مذقطة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومذقطة ايضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافته بالحجارة المروكومة ، فجاء في نهاية الوثاقاة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة ، ولهذه البلدة نهر ، مجراه بالجهة الشرقية ايضا منها بين سورها وجبانته ، ومصبه من عين هي على بعد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على احفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفرالدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدين وهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق ، وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كأمد وميا فارقين وحاني وغيرها مما يطول ذكره ، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته

وان كانوا مستبئين ، وفضله يبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، واقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس ، الذي فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين ، وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر ، فأذسنا ودعا لنا ، وودعناه وانصرفنا حامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء اوليائه الصالحين وعبادة المقربين .

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويم ساعة ، فأسرينا الى الصباح ، ونزلنا مريحين « بتل عبده » ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متسع ، كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه اثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جار ، وكان رحيلنا منه عند المغرب ، واسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبيضاء » فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة ، « سروج » التي شهر ذكرها الحريري بذسبة أبي زيد اليها ، وفيها البساتين والمياة المطردة ، حسبما وصفها به في مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضدوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقللة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط ، تعرف « بقلعة نجم » وحولها بيار بابية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز ، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق . والفرات حد بين بيار الشام وبيار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة « الرقة » وهي على الفرات ، وتليها

« رحبة مالك بن طوق » وتعرف « برحبة الشام » ، وهي من المدن الشهيرة ، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الاول ، واسرينا ووصلنا مدينة « مذبح » مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور ، والثاني والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة مذبح ، حرسها الله

بلدة فسيحة الارعاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ، ومجتلاها جميل ، ونسَميها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه : سحر كله ، تحف بغربيتها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار ، مختلفة الثمار . والماء يطرد فيها ، ويتخال جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بأبار معينة ، شهيدة العذوبة ، ساسيلية المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران ، وارضها أرض كريمة ، تستنبط مياهها كلها ، واسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعلي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ؛ كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة في جوفها ، تنقطع عنها وتنحاز منها ، ومدن هذه الجهات كلها لاتخلو من القلاع السلطانية . وأهلها أهل فضل وخير ، سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، واحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجها ، في أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل . ووصلنا « بزاعة » ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية ، وفي اعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحد ملوك الزمن ففساظته باستصعابها ، فأمر بذلم بنائها حتى غادرها عورة مذبونة بعرائها ، ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الانيق حسن الحضارة .

ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هي باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لايحصى عددهم الا الله فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم ، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الانفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون . فاقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، واسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة « حلب » ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من الذفوس أثير ، فكم أهاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتاع ، بائة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام او

تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الارض مستديرة ، منحوتة
الارجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من احكم
تقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقة في الازل ،
حديثة وإن لم تزل ، قد طاوت الايام والاعوام ، وشيعت الخواص
والعوام . هذه منازلها وبيارها ، فأين سكانها قديما وعمارها وتلك
دار مملكتها وفناؤها ، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟
اجل ، فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناؤها ! فياعجبا للبلاد تبقى
وتذهب املاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها ، تخطب بعدهم فلا
يتعذر ملاكها (٧) وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ، هذه حلب ،
كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت بظرف الزمان بالمكان ،
انث اسمها فتحلت بزينة الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت
عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سيهرم
شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرق
جنبات الحوادث اليها ، حتى يرث الله الارض ومن عليها ، لا إله
سواه ، سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعد الى ما كنا بصدده ،
فذا قول : ان من شرف هذه القلعة ، انه يذكر انها كانت قديما في
الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا
الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ،
فذاك سميت « حلب » والله أعلم . وبها مشهد كريم له ، يقصده
الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومن كمال خللها المشتربة في
حصانة القلاع ، ان الماء بها نابع ، وقد صنع عليه جبان ، فهما
ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر
كله ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين
ويطيف بهنيز الجبين المذكورين ، سوران حصينان من الجانب الذي
ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق والحسن اعظم من أن تنتهي الى
وصفه . وسورها الاعلى كئسه أبراج منتظمة ، فيها العلالى المنيفة ،
والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا . وكل برج مسكون ،
وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

واما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الاسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من [سماط] صنعة الى سماط صنعة أخرى ، الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الابصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا ، وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرم ، لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولوكان من المراني الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة ، وتخلتها شرف خشبية بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتوح كله ابوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجالت صفحاته كلها حسنا ، على تلك

الصغيرة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرضع كله بالعاج والآج واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب ، مع ما يليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم اكثر من ان يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربي ، مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن

وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة ، وابوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتمنى » في خان وثيق ، على الصفة المذكورة .

ثم اسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور ، وهو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور . بلاد « المعرة » ، وهي سواد كلها : بشجر الزيتون والتين والفسق واذواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها ، وانتظام قراها ، مسيرة يومين ، وهي من اخصب بلاد الله ، واكثرها ارزاقا ، ووراءها جبل « بهراء » وهو سامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ، وفي صافته حصون للملاحدة الاسماعيلية ، فرقة مرقت من الاسلام ، وادعت الالهية في أحد الانام ، قبيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات موه عليهم باستعمالها ، وسحروهم بمحالتها ، فاتخذوه لها يعبدونه ، ويبدلون الانفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الردى ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، ونعوذبه سبحانه من الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة من ضلال الملحدين ، ولا رب غيره ، ولا معبود سواه . وجبل بهراء المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم ، اعادها الله للمسلمين . ويغيرون منه على حماة وحمص ، وهو بمراى العين منهما ، فكان وصولنا الى مدينة « حماه » في الضحى الاعلى ، من يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها في احد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصحبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، اقطارها مصمومة ، وبيارها مركومة ،

لايهش البصر اليها ، عند الاطلاع عليها ، كأنها تكن بهجتها
وتخفيها ، فتجد حسنها كامنا فيها ، حتى اذا جست خلالها ،
ونقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا ، تتسع في تدفقه
اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرقيه ، بساتين
تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عازارا بصفحتيه ، يذسرب في
ظلالها ، ويذسب على سمت اعتدالها ، وبأحد شطيه المتصل
بربضها مظاهر منتظمة بيوتا عدة ، يخترق الماء من أحد دواليبه ،
جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل اثر انى فيها ، وعلى شطه الثاني
المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه ،
طيقانا تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ، وتتقيد الابصار لديه ،
وبازاء ممر النهر بجوفي المدينة ، قلعة حلبيه الوضع ، وإن كانت
دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء يذبع فيها ،
فهي لاتخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العدى . وموضوع هذه
المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ،
يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة
بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة
منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها الزمان ، وحصل لها
بحصانتها من كل عدو الامان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة
بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور
المدينة العليا يمتد على رأس جانبيها العلي الجبلي ويطياف بها .
والمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب ، لأن جانبيها
المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير ، معقود
بصم الحجارة ، ويتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضها
كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر
حاجته ، الى ان يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفل
وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات
والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، ببيع الترتيب والتقسيم ،
ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ، ولها ثلاث مدارس ،
ومارستان على شط النهر ، بازاء الجامع الصغير . وبخارج هذه
البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم أكثره شجرات الاعناب ،

وفيه المزارع والمحارث ، وفي منظره انشراح الذئفس وانفساح ،
والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى « العاصي » لأن
ظاهرة انحداره من سفلى الى علو ، ومجرأه من الجنوب الى
الشمال ، وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحمارة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا
منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي
المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة . وعليه مدينة رستن
التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأثارها عظيمة ، ويذكر
الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جملة مكنوزة ، والله أعلم بذلك ،
فوصلنا الى مدينة « حمص » مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفى
عشرين لربيع [الأول] وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان
السييل .

ذكر مدينة حمص ، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها
من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مده ،
لايخرقه الذسيم بمشراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفبح أغبر ،
لاماء ولاشجر ، ولاظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظمأها ، وتستقي
على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصي ، وهو منها بنحو
مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب
نضرتها ، ومنبعه في مغارة بصفح جبل ، فوقها بمرحلة بموضع
يقابل « بعلبك » أعادها الله ، وهي عن يمين الطريق الى دمشق ،
وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لجاورتهم
إياه ، وبعدهم في ذلك أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها
الرطب ، وذيستها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكان الهواء النجدي
في الصحة شديقه وقسيمه ، وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ،

عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وابوابها ابواب حديد ، سامية الاشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والاناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها فما شئت من بادية شعناء ، خلقة الارحاء ، ملفقة البناء ، لاشراقا لافاقها ، ولارونق لاسواقها ، كاسدة لاعهد لها بذفاقها ، وماظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره ، وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن الجهات ؟ فقال ، وقد انكر ذلك بجمص كلها مارستان ! وكفاك تبييننا شهادة اهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجد في هذه البلدة عند اطلاقك عليها من بعد ، في بسيتها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة « اشبيلية » من بلاد الاندلس ، يقع للحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها ، حسبما يذكر ، وهذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته .

وأقننا بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعده ، وهو الثاني ليوليه ، الى أول الظهر ، ورحلنا منها وتماديننا الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف « مشغرى » ، فعشيننا بها الدواب ، ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف « بالقارة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد ، فهو لايزال ملآن ، فارحنا بالخان المذكور الى الظهر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف « بالنبك » بها ماء مار ومحارث

متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمه خفيفة .

واسرينا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو في نهاية الوثاقاة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الارض ، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او اربعة : منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا بها يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور ، مريحين ومستدركين للزوم الى أول الظهر ، ثم رحلنا وجـزنا « بثنية العقاب » ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احدهما التي جئنا منها ، والثانية أخذة شرقا في البرية على السماوة الى العراق ، وهي طريق قصد لـكنها لاتدخل الا في الشتاء ، فأنحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقصير » فيه خان كبير ، والنهر جار امامه ، ثم رحلنا منه الصبح ، وسرنا في بساتين متصلة لايوصف حسنهما ، ووصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء ، بموافقة الحادي عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربي جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تجلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل وماء سلسيل ، وتنساب مذاربه انسياب الارقم بكل سبيل ، ورياض يحيي الذفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجئلى صقيل ، وتناييههم : هلموا الى معرس الحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب (٨) » ، قد احدثت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتدفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيةها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لخطته بجهاتها الاربع نضرت اليانعة قيد النظر ، وله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الارض قدمشق لاشك فيها ، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحانيها » .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه لا تندسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر

لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه ازيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحا ولامساء . وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، وأهل الطلب ، كثيرة واسعة ، واغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، ابصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس امامه صبي يلقيه القرآن . وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية .

وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، ولها وقف كبير ، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا ايضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الاشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ، والصبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوة

وبأخر هذا الجبل [جبل قاسيون] المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب

الله تعالى : مأوى المسيح واه صلووات الله عليهما ، وهي من ابداع
مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، واشراقا ، واتقان بناء ، واحتراف
تشبيد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على
ادراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي
كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلى الخضر صلى الله
عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهنئين الموضعين المباركين ،
ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد
يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ،
قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في
الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من
منظره . وخلف ذلك مظاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير
بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس
بساتين البلد ، ومقسم مائة ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار ،
يأخذ كل نهر طريقه ، واكبر هذه الأنهار نهر يعرف « بثورا » ، وهو
يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح
له مذبذب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح
الصبيان او الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء
حتى يشق مذبذبة تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة
كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في
البلد ، ولا اشرف كاشرافها حسنا وجمالا واتساعا مسرح
للأبصار ، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى
فتحار الأبصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع
انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها ، اعظم من
ان يحيط به وصف واصف في غلق مدحه ، وشأنها في موضوعات
الدنيا الشريفة خطيرة كبيرة .

ويتصل بها اسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة
تعرف « بالنيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما
بناؤه . وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص
الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه نيباج مبدوط ، وفيه سقاية ماء

راذقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب ، يجري الماء فيها ،
ويطيف بها ، فوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من أحسن
القرى ، تعرف « بالمزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة ، وبقرية
النيرب حمام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم
عليه السلام ، قرية تعرف « ببيت لاهية » يريدون الآلهة ، وكانت
فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان أزر أبو ابراهيم ينحت
فيها الآلهة ويصورها ، فيجىء الخليل ابراهيم صلوات الله عليه
وعلى نبينا الكريم فيكسرها ، وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل
القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم كله
خواتيم واشكالات بديعة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ،
وهو من المشاهد الكريمة ، وللربوة المباركة اوقاف كثيرة ، من
بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسيم لوظائفها :
فمنها ما هو معين باسم الذفقة في الأدم للباثتين فيها من الزوار ،
ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو
معين للطعام ، الى تقاسيم تستوفي جميع مؤننها ، ومؤن الامين
الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤن الملتزم خدمتها ؛ ولهم على ذلك
كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من أعظم الخطط .

والامين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين (٩) ومن
أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك ، وله
مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير
حاشى فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق
بسبب من اسباب البرقي ايواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه
الجهات ، يسبب لهم وجوه المعاش من الامامة في مسجد ، او
سكنى بمدرسة تجري عليه فيها الذفقة ، او التزام زاوية من زوايا
المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، او
سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقوم
به من اوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل

المباركة مما يطول شرحه ، فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه ، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا الاثوابها داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤذيهم ألى محاضرتهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لانهم قد علاهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلديين . وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وإن شاء احد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قيما وحديتا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربي البلد جبانة (١٠) كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمة الصالحين رضي الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قبر ابي الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنهما ، وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ، من الذين بايعوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه ، وقبره مسنم في الموضع المذكور . وقرأت في فضائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر وائلة بن الاسقع من أهل الصفة ، وفي الجهة التي [تلي] هذا الموضوع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبر أوس ابن أوس الثقفي » . وحول هذا الموضوع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حمامة مؤنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه ، والدعاء في هذا الموضوع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم ، ولها الاوقاف الواسعة .

ومن احفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيظ ، رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صفار وكبار ، وفي المحراب حجر عظيم ، قد شق بنصفين ، والتحم بينهما ولم يبين النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه : إما بضربة بسيفه ، أو بأمر من الامور الالهية على يديه . ولم يذكر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا إن زعموا أنه كان في الذوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم ، اذ لا تصح لهم جهة اليقظة ، وهذا الحجر اوجب بنيان هذا المشهد . وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم اكثر من السنين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالبذوية ، سنيون يدينون بالفتوة وبأمر الرجولة كلها ، وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه [ويلبسونه] السراويل ، فيلحقوه بهم ، ولا يرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . وانا أقسم أحدهم بالفتوة برقسه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض ، أينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الانفة والانتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف « بالمنيحة » شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب :

« هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشيبهما بابنته أم كلثوم رضي الله عنها ، والله اعلم بذلك ، ومشهدا الكريم بقرية قبلى البلد تعرف « براوية » على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا اليه ، وبتنا به ، وتبركنا برويته ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبانة التي بغربي البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضي الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال : إنه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما ، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ، ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لام مريم رضي الله عنها ، وبقرية « داريا » قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه ، وعليه قبة هي علامة القبر ، وبها أيضا قبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه ، ومن المشاهد الكريمة ، التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ودوح عليهما السلام ، وهما « بالباقع » وهي على يومين في البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث فألقى فيه أربعين باعا ، وفي قبر دوح ثلاثين ، وبازاء قبر دوح قبر ابنه له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها ، ومن المشاهد المباركة أيضا ، بالجبانة الغربية بمقربة من باب الجابية ، قبر اويس القرني رضي الله عنه ، وقبور خلفاء بني أمية رحمهم الله ، يقال : انها بازاء باب الصغير ، بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه ، والمشاهد المباركة بهذه البلدة اكثر من ان تنضب بالتقييد ، وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة ايضا ، مسجد الاقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة ، على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وبيار مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فيقول : ههنا قبر اخي موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثيب الأحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وغوييلية كما ورد في الاثر ، وهما موضعان ، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : ان النور ماخلاقط من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه ، حيث الحجر المكتوب . وله اوقاف كثيرة . فأما الاقدام ففي حجارة في الطريق اليه ، معلم عليها ، تجد اثر القدم في كل حجر ، وعدد الاقدام تسع ، ويقال : انها اثر قدم موسى عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا اله سواه .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله ببركته

استهل هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر اغوست العجمي

ذكر جمل من احوال البلد ، عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية ابواب : « باب شرقي » ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال : ان عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما جاء في الاثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلى هذا الباب « باب توما » وهو ايضا في حيز الشرق ، ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفرانيس » ، وهو شمالي ؛ ثم « باب الفرج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربي ؛ ثم « باب الجابية » كذلك ، ثم « باب الصغير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار ، والبلد ليس بمفرط الكبر ، (و) هو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبنائه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنة كله خارج لاداخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهي حافلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احفظهما وأكبرهما ، وجرأيته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغنية وغير ذلك ، والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغنية ، حسبما يليق بكل انسان منهم ، والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد أكثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين ايضا ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل مودقون ، ونعوز بالله من المحنة وسوء القدر ، وتندر من بعضهم الذوادر الظريفة ، حسبما كنا نسمع به ، ومن اعجب ما حدثت به من ذلك : ان رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفه حتى اختبل ، وادي الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي ، وربما كان يدخله أبوه اليه ، فقيل له : اخرج وعد لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ ما

بقي في حفظى من القرآن شيء سوى « اذا جاء نصر الله » فضحك منه ، ومن قوله ، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن احسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شانروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريح كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجد الدعاء لنور الدين رحمه الله ، وأما الرباطات التي يسمونها الخواذك كثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضلها ، وفرغ خواطرها لعبادته من الفكرة في اسباب المعاش ، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المئابرة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لآحد ملوك الأتراك فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من الذبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى

استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فبطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي اثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله . ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الامر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبيرة ، وله الأثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز ، وكانت الايام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، اصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقاف كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وارض بيضاء ، وحمام ودكانان بالطهارين ، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو ابو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار في العام ، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير ، نفعه الله بما اسلف من الخير ، وهيا ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الامور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل نبي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا

سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان ، أو الى جبل الجودي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ماشاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان ، اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وكلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضعف ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ؛ ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأولى ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشرف قليلا ، وهو شرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، ويذكر أنه ينتهي الى اربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الافرنج ، غير مذقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم : وهي من الامنة على غاية . وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد

المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تتعرض الرعايا ولاالتجار ، فالامن لايفارقهم في جميع الاحوال سلما أو حربا ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه والله يعلي كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الدور متصلة بهما ، وهما من أبداع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة . وبهذه البلدة ايضا قرب مئة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار اسلام بمنه ، وأسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد ، واحسنها انتظاما ، وابدعها وضعا ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها القناديق ، مذكفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة ، ولها ايضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال : ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوب لعمر بن عبد العزيز - التي هي اليوم للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا - حديث عجيب ؛ وذلك ان الذي اشتراها ، وبنائها ، وجعل لها الاوقاف الواسعة ، وأمر

بأن يدفن فيها ، وان يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري - وهو ثلاثة ارطال من ارطال المغرب - رجل من العجم يعرف بالسميساطي - وسميساط بلدة من بلاد العجم - وكان موصوفا بالورع والزهد . وأصل يساره وتموله ، فيما ذكر لنا ، أنه الفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفت اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمييزه وخدمته ، والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطي المذكور ، فقال له : « انت قد احسنت الى وخدمتني ، ولطفت في تمييزي ، واشفقت لحالي وغربتي ، فأنا أريد أن اكافئك على فعلك بي ، زاندا الى مكافأة الله عز وجل عني في الآجل ، إن شاء الله : وذلك أبي كنت جن احد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب على بعض الأمر ، فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فاصابني فيها من أمر الله ما اصابني ، فسببك الله لي رحمة ، فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا ، اذا أنامت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا ارشدت اليها فصرف الحيلة في اكترائها ، وارجو ان الله يعينك على ذلك . واذا سكنتها فاعمد الى موضع - سماه له فيها ، وذكر له أمانة عليه - فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذي تجده معترضا تحت الارض ، وخذ الذي تجده مدفونا تحت الارض ، وصرفه في منافعك ، وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركاك في ذلك ، ان شاء الله » ثم توفي الرجل الموصي رحمه الله ، وتوجه الموصى اليه بعهد الى بغداد ، فيسر الله له في اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر ، فدهسها في أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبناها خانقاه للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الاوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسوم الصوفية ،

واوصى بأن يدفن فيها . وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر ذلك مذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقا كثيرا ، فتغص الخازقة بالقرأة كل جمعة ، فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز ، على الصفة المذكورة . وبقي للمتوفي جميل الاثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التي ذكرناها أيضا بالجامع المكرم ، والمقروءة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن احد ذوي اليسار توفي ، واوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مئة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لا يحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة . فينقسم له اربعون ديناراً في كل ثلاثة أشهر من السنة ، ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفي أيضا ، وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم ، بحيث لا يظهر ، وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربع مئة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم ، وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم ، اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور . وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع ، متصلاً مع جدار القبلة الى الجدار الشرقي ، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الايام ، نفع الله بها راسمها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل ، وللفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموقفين برسمهم ، الى ما يطول ذكره من المآثر الاخراوية الصديقة ، التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم

عرفة بجوامعهم ، اثر صلاة العصر ، يقف بهم ائمتهم كاشفي رؤوسهم ، داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وقد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلأيزالون واقفين ، داعين ، متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدرُوا نفر الحاج ، فيذفصواوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ، ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغربية الشأن ، وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان : الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها ؛ سعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الاولى المذكورة ، من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله الواح رصاص منتظمة ، كما قد تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح الميد تكاد تطير بنا ، فحبونا في الممشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشبار ، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة ، على احد شراجيبها المفتحة في الرصاص ، فابصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام ، وجلنا في فرش من الخشب العظام ، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان في المحاضر ، هذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب

الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبداع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين ، بدفعة القرنصة ، يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها ابصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله اقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها ، والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الاوساط بنطق الحديد ، وعدها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مثلثا شبر وستون شبرا ، والحال فيها اعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ماوراءها ، وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب ما لا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتنقلها الفيلة فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التآني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه ! والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة . قد قامت فوقها ارجل قصار ضخام من الحجارة الصمم الكبار . وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان

في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف
الآخري ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم
نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفتد لهما من احد ،
والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ،
وقد كان حقوق عدنا ان الجامع المكرم لاتنسج فيه العنكبوت ، ولا
يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا
التقييد ، فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجا عجا بما من هذا
المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصفه ،
ويقال : إنه ماعلى ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا
اغرب بنيانا ، من هذه القبة ، الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ،
فانها يحكى انها ابعده في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الامران
نظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها عند
معاينها بالصعود اليها ، والولوج داخلها ، من اغرب ما يحدث به
من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولاهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنازهم رتبة عجيبة ،
وذلك أنهم يمشون أمام الجناز بقراء يقرأون القرآن بأصوات
شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ،
يرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الأذان بأدمع الاجفان ، وجنازهم
يصلى عليها في الجامع ، قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من
الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع
الصلاة عليها ، الا ان يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ،
فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة
عليه ، وربما اجتمعوا للغزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء
باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من
القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجناز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل
واصل للغزاء ، من محدثمي البلدة وأعيانهم ، ويدلونهم بخططهم
الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ،

فتسمع ما شئت من صدر الدين ، او شمسه ، او بدره ، او نجمه ، او زينه ، او بهائه ، او جماله ، او مجده ، او فخره ، او شرفه ، او معينه ، او محييه ، او زكيه ، او نجيبه ، الى مالا غاية له من هذه الالفاظ الموضوعه ؛ وتتبعها ولاسيما في الفقهاء بما شئت ايضا من سيد العلماء ، وجمال الائمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى مالا نهاية له من هذه الالفاظ المحالية . فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا انياله من الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله ، فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ، وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك او الخادم برسوم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون الحال تعاطيا ، والجد عندهم عنقاء مغرب ، وصفه سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هويا . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء فياعجبا لهؤلاء الرجال ، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه ! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبه في الباطل . فيالعجب منهم ، اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم ، فيماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الانئاب عندهم

والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والرؤوس ! فسبحان خالق الخلق ، اطوارا ، لا شريك له ، ولا معبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناية مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا ، واوثقوا تكديفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييذا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفها ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحتم من منهم من يسحب نياله على الارض شبرا ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله ، فراه حسنا ، استغفر الله منهم ! فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولا سيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء اقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الاهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وذلك ايضا طريقة حسنة ، يذفهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر ايضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات « صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب » ، وماله من المآثر الماثورة في الدنيا والدين ، ومثابرتة على الجهاد اعداء الله ، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه

الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه ؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين ، وحللتناها وقد خرج لنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضا له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه ، وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة ، وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان ، والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداهما أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفع عن جريرة أحد الجناة عليه : « أما أنا فلأن أخطي في العفو أحب الي من أن اصيب في العقوبة » . وهذا في الحلم منزع احذني (١٣) وقال ايضا : وقد تذوشدت بحضرتة الاشعار ، وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجودهم : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما اراقه من حر ماء وجهه في استماحه اياي » . وهذا في الكرم مذهب رشيدي او جعفري (١٤) وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة ، مستعديا على جمال ذكر انه باعه جملا معيبا ، او صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ما عسى ان اصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، ووامره ونواهيه ممثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته » . والشحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحق يقضي لك او عليك » . وهذا في العقد مقصد عمري (١٥) وهذه كلمات ، كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يتمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر شنتبر العجمي ، ونحن بدمشق حرسها الله ، على قدم الرحلة الى عكة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفي مراكبهم المعدة لسفر

الخريف المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته . وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته ، انه سبحانه الحنان المنان ، ولي الطول والاحسان ، ولارب غيره . وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبدر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة .

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسببهم يدخل الى بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا امرا عجيبا ، وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر في هذا التاريخ ، قصد اليه الافرنج في جميعهم ، وقد تألبوا من كل اوب وراموا ان يسبقوه الى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد اليهم ، واقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء . فسادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه اكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه ، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة ، وانتهاز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلس وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا . وامتلات ايدي المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الافرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري . وانبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتفت من الامتعة ، والنخائر ، والاسباب ، والأثاث ، الى النعم والكراع ، الى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق ايدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد [ما] حوت ، وامتلات غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الافرنج ،

وأبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من اسرى المسلمين عددا كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق ، واوائل المسلمين قد طرقتوا بالغنائم ، كل بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي الافا لم نتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الاقرب ليوم انفصالنا ، واعلمنا انه يجم عسكره قليلا ، ويعود الى الحصن المذكور ، فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته ، وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسيبهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ، فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريا ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف « ببيت جن » ، هي بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح ، واعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا :

هي حد بين الامن والخوف في هذه الطريق لحراميه الافرنج ، وهم الحواسه والقطاع ، من اخذوه وراها الى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبرأسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله ، لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من اطرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي الى احد ابواب المدينة ، وله مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للإفرنجة ، يسمى « هونين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة

فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها . فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور ، الى قرية تعرف « بالاسيه (١٦) بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها يوم الاحد سحرا ، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، واكثر شجرة الرند ، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقي حافته ، ويتعلق بالسماء اعلاه ، يعرف « بالاسطبل » ، لولجته العساكر لغابت فيه ، لامنجى ولا مجال لسالكة عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فاجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف « بتبنين » وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدينار الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها أن طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم في اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم ، وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتآلبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم . فاللغاربة في أداء هذا المكس

مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبذوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبي عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم ، فانزل التجار رحالهم به ، ونزلوا في اعلاه ، وطلب رجل من لاسلعة له ، لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله ، فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل ، فنزلنا بها في بيت اكرتريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله واعادها

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجوّاري المنشئات في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الاقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبان ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذره ، انتزعها الافرنج من ايدي المسلمين في العشر الاول من المئة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بايدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس !

وفي شرقي البلدة العين ، المعروفة بعين البفر ، وهي بني اخرج الله

منها البقعة لآدم صلى الله عليه وسلم
والمهبط لهذه العين على ادراج وطية ، وعليها مسجد بقي محرابه
على حاله ، ووضع الافرنج في شقيه محرابا لهم ، فالاسلم والكافر
يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه ، وهو بأيدي
النصارى معظم محفوظ ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثم توجهنا الى صور يوم الخميس
الثاني عشر لجمادي المذكور والموفي عشرين لشتنبر المذكور على البر ،
واجتازنا في طريقنا على حصن كبير ، ويعرف « بالزيب » ، وهو
مطل على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف
« بالاسكندرونة » ، وذلك لمطالعة مركب بها ، اعلمنا أنه يتوجه الى
بجاية طمعا في الركوب فيه . فحللناها عشي يوم الخميس المذكور ،
لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد
لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لاتلقى لطالبها بيد طاعة ولا
استكانة ، قد اعدوا الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة
لامانهم ، هي انظف من عكة سكا وشوارع ، واهلها الين في الكفر
طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلانقهم
اسجح ، ومنازلهم اوسع وافسح ، واحوال المسلمين بها أهون
واسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفر . وأما حصانتها ومناعتها
فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : أحدهما في البر
والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر
يفضي اليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة
محيطة بالبواب ، وأما الذي في البحر ، فهو مدخل بين بـرجين
مشيدين الى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعا منها ،
يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحرق بها من الجانب

الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشان هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية اكمل وأجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، وبخلفناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادى المذكور وهو آخر يوم من شهر شـتـتبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصفرناه ، فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ؛ واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمساكنها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في ابهى زي ، وأفخر لباس ، تسحب أنيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصاية ذهب ، قد حفت بشبكة منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامة او سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أنيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في اندفس الملابس ، ويرفلن في أرقل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقتهم سماطين ، يتطلعون فيهم ولا يذكرون عليهم ذلك ؛ فساروا بها حتى

ادخلوها دار بعلمها ، واقاموا يومها ذلك في وليمة ، فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة في البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر اكتوبر ، واكثرينا في مركب كبير ، نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين . ولهم فيها مساجد أخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين . أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوز بالله منها وانهم حملتهم الاذقة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم ، غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزيمة نافذة ، ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقتضي الله قضاءه ، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ، ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت في البرية مشيئته ، وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال يعانيتها في بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ؛ ومنها سماع مايفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لاسيما من أرادلهم وأسافلهم ؛ ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لاينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره .

ومن الفجائع التي يعانيتها من حل بلادهم اسرى المسلمين ،
يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ،
والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتذفطر
لهم الافئدة ، ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا ، ومن جميل صنع الله
تعالى لاسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من
يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ،
وانما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم
لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون
عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من
النساء وأهل اليسار والثراء إنما يذفقون
أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة
اصابته ذفريق اثني عشر ألف دينار ، في فداء اسرى من المغاربة ،
فلما استبدل من مرضه ارسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من
المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم ،
وأخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : « هؤلاء يفتكهم اهلوهـم
وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لأهل لهم » فانظر الى لطيف صنع الله
تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ،
وكبرائهم ، واغنيائهم المنغمسين في الثراء : احدهما يعرف بنصر بن
قوام ، والثاني بأبي الدراياقوت مولى العطافي ، وتجارتهما كلها
بهذا الساحل الافرنجي ، ولاذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من
المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة بيضائعهما ، وشأنهما في
الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد
نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال
ذوي الوصايا ، لانهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من امانتهما ،
وثقتهما ، وبذلها أموالهما في هذه السبيل . فلا يكاد مغربي يخلص
من الأسر الا على ايديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل يذفقان
أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين ، من

أيدي اعداء الله الكافرين ، والله تعالى (لا يضيع أجر المحسنين (١٨) .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاز بالله من شرها ، انه صبحنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربي من « بونة » عمل « بجاية » ، كان أسيرا فتخلص على أيدي ابي الدر المذكور ، وبقي في جملة صبيانه ، فوصل في قافلته الى عكة ، وكان قد سحب النصرارى وتخلق بكثير من اخلاقهم ، فمازال الشيطان يستهويه ويفريه ، الى ان نبذ بين الاسلام فكفر ، وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس (١٩) ورجس ، وقد عقد الزنار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسحيق المآب ، نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والاخرة ، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضلته ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة ، المسمى عندهم بالمالك ، محجوب لا يظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام ، قد شغلته بلواه في صباه ، عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) (٢٠) . وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس ، وهو صاحب المجبى ، واليه ترتفع الأموال ، والمشرف على الجميع بالمكانة ، والوجاهة ، وكبر الشأن في الافرنجية اللعينة ، القومس اللعين ، صاحب طرابلس وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الافرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين ، نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين ، وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق ، لسهولة طريقها . ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها ، وبحيرة طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو

أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والأقوال فيها تختلف سعة وضيقا ، وفيها قبور كثيرة ، من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب ، وسليمان ، ويهوذا وروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجبل الطور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية ، والله يعيده الى أيدي المسلمين ، ويظهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لابساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض افيح ، متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياح ، ومنها تجبى الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد ، ولعكة في الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء ، ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمال لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه ، واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر ، دمره الله ، ولصور عند بابها البري عين معينة ، ينحدر اليها على ادراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها ، والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لاكتوبر ، صعنا الى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمئة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعد من النصارى المعروفين بالبلفريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لا يحصى ، ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لامعبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله ببركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته ، وتمادى مقامنا فيه مدة اثنتي عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايو واكثر وأقل ، بحسب ما يقضي الله تعالى به ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وانما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، واكثر وأقل، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواما ، فالسافرون الى المغرب ، والى صقلية ، والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة ، التي اقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت في البر ، وتنفقد المركب في الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لأكتوبر ، ألق المركب ، وكنا على عادتنا في البر باثنتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، وذهبنا المثل المضروب في اعداد الماء والزاد ، وأن لا يفارق الانسان رحله ، فاصبنا والمركب لاعين له ولا اثر فاكترينا للحين زورقا كبيرا ، له أربعة مجانيف ، وأقلعنا ندبعه . وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشي ،

فحمدنا الله عز وجل على ما من به ، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد لله يوم فرجنا ، والله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والرياح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الرياح الغربية من مكمنها ، دافعة في وجه المركب . فأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجذوي ، وكان بصيرا بصنعتة ، حاذقا في شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يميناً ، وتارة شمالاً ، طمعا ان لا يرجع على عقبه ، والبحر في اثناء ذلك رهو (٢١) ساكن ، فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الرياح الغربية ، فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون ، واقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب ، لانها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة . فتبادر البحريون اليها ، وحط شراع الصاري الكبير وعطل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاري المرتبط بالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعة في البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا في أمر لا يعلمه الا الله تعالى .

وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، واقاموا في الاردمون شراعا يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ، الى أن وضع الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم ، والرياح الغربية على اول لجاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغليين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وحفي لطفه ، ومعهود فضله ، سبحانه ، هو أهل ذلك جلّت قدرته ، وتناهت عظمته ، الا إله سواه .

وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه ، تحركت الرياح الشرقية نسيماً فاتراً عليلاً ، فاستبشرت الذفوس بها رجاء في نمائها

وقوتها ، فكانت نفوسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق ، سكنت له امواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربع نفس يتنفس..... فبقينا

لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأننا نجول بين سماءين وهذا الهواء الذي يسميه البحر يون الغليني ، وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من ذونبر العجمي ، كان للنصارى عيد مذكور عندهم ، احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخلو احد منهم صغيرا او كبيرا ، ذكرا أو انثى ، من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم ، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله اعلاه واسفله سرجا متقدة ، وتماينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة . ثم اصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن ، واتصل بنا ذلك الى ليلة الاحد السابع والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس ، والحمد لله